صورة الممدوح في شعرإبن نباتة

The Depiction of Praiseworthy in the Poetry of Ibn-e-Nabatah

Dr. Muhammad Nasir Mustafa
Lecturer (Arabic), Department of Arabic Language &Literature, University of Sargodha, Sargodha
Email: nasir.mustafa@uos.edu.pk

ABSTRACT
Praise, as the Arabs were accustomed, was only a mean to reach the highest ranks among the caliphs, princes, and ministers, and to gain gifts and obtain whatever money, gold, and housing they desired. As for praising Ibn-e-Nabatah, it was not out of seeking positions, but rather it was a pursuit of the nation's glory that was lost in the mire of division. The man appeared clearly in Ibn-e-Nabatah's poetry through his praise, as he demonstrated all of his qualities of courage, generosity and chivalry etc. He praised a number of princes and ministers, each of whom had qualities that distinguished him. Ibn-e-Nabatah was aware of this, so he painted pictures of praiseworthy, including the caliphs, princes, and ministers, characterized by exaggeration and glorification of their status, as we will see - in this research - when we look at those praised by the caliphs, ministers, and princes. This research relies on the Abstract, the life of Ibn-e- Nabatah, the image of the praiseworthy in his poetry, the conclusion of the research, and the indexes.

Keywords: Praiseworthy, depiction, glorification, generosity, caliphs, chivalry

لم يكن المدح كما اعتاد العرب إلا وسيلة للوصول إلى المراتب العليا عند الخلفاء والأمراء والوزراء، واكتساب العطايا وحصد ما تشتهي أنفسهم من الأموال والذهب والسكن. أما مدح السعدي فلم يكن من باب طلب المناصب بل كان سعيا وراء مجد الأمة الضائع في وحل الفرقة والانشقاق. برز الرجل واضحا في شعر السعدي من خلال المدح إذ بين كل ما فيه من صفات الشجاعة والكرم والشهامة والنخوة وغيرها، فمدح عددا من الأمراء والوزراء ولكل منهم صفات يتميز بها. وقد وعى ابن نباتة ذلك فرسم لممدوحيه من الخلفاء والأمراء والوزراء صورا تتسم بالتهويل والتعظيم لشأنهم كما سنرى –في هذا البحث– حين نقف عند من مدح من خلفاء ووزراء وأمراء.ويعتمد هذاالبحث على المقدمة و حياة ابن نباتة و صورة الممدوح في شعره وخاتمة البحث والفهارس.

ابن نباتة السعدي

هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة[1] بن حميد بن نباتة وقد عرف بأبي نصر بن نباتة التميمي[2] السعدي البغداذي[3] ولد ابن نباتة السعدي عام (327هـ/939م) في بغداد[4] ولم تذكر المصادر التي اضطلعت عليها شيئا عن نشأته.

أما أسرته فقد كانت ميسورة الحال، فأبوه عالي الهمة ميسور الحال رابط الجأش محب للعلم والمعرفة، وهذا اليسار هيأ لابن نباتة فرصة التزود من ينابيع العلم والأدب فمال إليها وترعرع في مجالسها وغرف من معينها، يضاف إلى ذلك ذكاؤه الذي مكنه من أن يجول في مراتع العلم ويغوص في بحور الشعر فتتهافت أمامه قوافيه صاغرة طائعة ويركب متون النثر فنتضوي تحت سلطانه راكعة يدلنا على ذلك ديوانه الذي حوى كنزا لا ينضب معينه وقلائد يتباهى بها جيد الدهر زاهيا شامخا بنادرة زمانه[5].أما أمه فلا نجد في ديوانه ذكرا لاسمها أو لقبيلتها لكنها كما يبدو توفيت بعد أبيه حين جاءت تبشره برد دوره إليه فسقطت من موضع عال فماتت. وللسعدي أخت توفيت قبله.

كان أبو نصر بن نباتة من فحول شعراء العصر وآحادهم, وصدور مجيديهم وأفرادهم, الذين أخذوا برقاب القوافي, وملكوا رق المعاني, وشعره مع قرب لفظه, بعيد المرام مستمر النظام, يشتمل على غرر من حر الكلام, كقطع الروض غب القطر, وفقر كالغنى بعد الفقر, وبدائع أحسن من مطالع الأنوار وعهد الشباب, وأرق من نسيم الأسحار وشكوى الأحباب[6]. وقال ابن خلكان إنه: "كان شاعرا مجيدا جمع بين حسن السبك وجودة المعنى"[7]

كان السعدي أحد الشباب الذين تأثروا بشعر المتنبي وذلك جلي في ديوانه، الذي حوى كثيرا من الأبيات التي تؤكد هذا التأثر بالمتنبي في الكثير من السمات،حين يتحدث عن ثقافته الأدبية، إذ يُبرز التناص بينه وبين المتنبي في عدد من الأبيات. ومن تلاميذه أبو الحسن الكاتب محمد بن علي بن نصر البغدادي[8]. كان ابن نباتة من فحول الشعراء وآحادهم. وبالرغم من انشغال الناس في زمانه بشعر المتنبي فقد تمكن شعر أبي نصر من أن يزاحم بمنكبيه شعر المتنبي فيسير في الأمصار ويشيع ذكره وتلهج به الركبان والفرسان وأهل المشرق والمغرب[9]. و قد كان أدباء عصره يستشهدون بشعره على الحب والمودة والإخلاص. كانت وفاته في بغداد في اليوم الثالث من شوال سنة 405 هـ/1015م، وقد دفن بمقبرة الخيزران وهي في الجانب الشرقي من بغداد[10].

صورة الممدوح في شعرإبن نباتة:

لم يأت ابن نباتة السعدي في شعره بمدح أحد من الخلفاء سوى القادر بالله، مؤكدا نسبه الأصيل الذي يعود إلى النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم فهو الحمى لمن ضاقت به الأرض، وجاء هذا المعنى بتصويره

الرجاء بالإنسان الذي يملك شيئاً ثميناً وهو الشرف، ومن يريد الحصول عليه يتوجب عليه أن ينمو ويعلو ليصله، وبهذا يجعل من رجاء الممدوح شرفاً يسعى إليه الناس.

وبما أن الممدوح بالنسبة للشاعر مانح للحياة فحري به أن يكون المعالج لما في القلوب من نفاق، لذلك فقد جعل الشاعر من قلوب الناس وسادة والنفاق حشوة فاسدة تملؤها:

أُنْمى إلى شَرَفِ الرجاءِ واحتمى
بأجلَّ من تُنمى بهِ الأعْرَاقُ
وأَزوُر في دارِ الخِلافةِ مَنْزِلاً
كلُّ البلادِ لِرَبِّهِ رُسْتَاقُ
تَرمى بنا الهِمَمُ العظامُ إلى الذي
تَرمى إليه بأهلها الآفَاقُ
بالقادرِ المعْطى أَزِمَّةَ أمرِنا
عادتْ إلى عيدانِها الأوراق
ومحى الإله به الضَّلالةَ والعمى
وشَفى قلوباً حَشْوُهُنَّ نِفَاقُ[11]

ويصور الشاعر إقدام الممدوح إلى المعركة وهو إقدام مُحِبّ لها لا إقدام مُكرَه عليها، ويظهر هذا في تشبيه السيوف بالبناء الذي له ظل لا يرتاح الممدوح إلا فيه، وهذا الإقدام يخلق في نفس من يقابل الممدوح نوعا من الرهبة والخشية:

ملك تضيقُ به الخيامُ فماله
إلا ظِلالُ المرهَفاتِ رُوَاقُ
يخشى تَباعُدُهُ ويُرهَبُ قُربُهُ
ويُهابُ منه اللحْظُ والإطراق[12]

ويشير السعدي إلى حال الممدوح الصعبة بما فيها من عسر ويسر وهوصامد وليعبر الشاعر عن ذلك جاء بصورة مركبة شبه فيها الطوى ، شبه ذلك كله بالذهب الذي لا تزيده النار إلا نضارة وخلاصة من الشوائب، فكلما ازدادت المشقة على ممدوحه ازداد إصراراً على مواجهتها ليصل إلى الخلاص منها:

هاشميٌّ جبينه يُخجلُ البد ... رَ ويغتالُ لونَها الوبَّاصَا
لا تَراه في العُسرِ واليسرِ إلا ... مستمراً على الطوى مِخْماصَا

شَذَّبَ الجهدُ عن نَواشِرِهِ النحـ ضَ ولم يَنتقِصْ قُواهُ انتِقاصَا
فهو كالتِّبر في الأَطيمةِ يَرَدَا دُ على النارِ حُمرة وخلاصَا[13]

ومن الأمراء الذين مدحهم السعدي الأمير سيف الدولة الحمداني، وقد أظهر اتجاهه عاطفة جياشة في قصائد وصفت بالغرر[14] ومن تلك الصور التي رسمها لمعاركه صورة (وقعة مرعش) التي دارت بينه وبين (الدُّمستق) وقد انتصر فيها سيف الدولة، ورسم السعدي صور الأهوال الناتجة عن الرعب والخوف في المعركة، فقد شبه السيوف بالإنسان الذي يعجز عن تصديق شيء أمامه لشدة وقع الهول على نفسه، ويأتي بصورة سيف الممدوح حين زجره فارتفع السيف لأجابته عالياً، مشبهاً إرتفاعه بالبرق الذي أومض على الأرض من أعالي السماء، وهذا اللمعان يشير إلى حدة السيف ولمعانه لأنه مشذب تشذيبا حاداً براقاً:

أيَعرفُ ملكُ الرومِ وقعةَ مَرْعَشٍ
وكفُّ أخيهِ في الحديدِ وثيقُ
ويُنكِرُ يوماً بالأحَيْدِبِ [15] كذَّبتْ
بهِ البَيْضُ حَدَّ البيْضِ وهو صَدوقُ
به شرَقَتْ من خشيَةِ الموتِ بالخُصى
صُدورٌ وفارت بالقُلوبِ حُلوقُ
ولما زجرتَ الأعوَجيّةَ أومضَتْ
على الأرضِ من أعْلى السّحابِ بُروقُ
فحطّتْ عليهم بغْتَةً كلَّ فارسٍ
بَروْدِ الحَواشي والطِّعانُ حَريقُ
إذا اعترضَ المرّانُ دونَ عدوّه
تَخَطّى وأطْرافُ الرماحِ طَريقُ [16]

ويصور ابن نباتة السعدى الدمستق بعد ما فعله به سيف الدولة في المعركة بصورة رسم ملامحها بتشبيه جلد الدمستق الذي مزقه سيف الدولة بالقماش الذي اهترأومُزق وكثرت خروقه، ويشبه كذلك جسد الدمستق:

وأفلت نقفور يُرَقعُ جِلدَه
وفيهِ لآثارِ السِّلاحِ خُروقُ
يَجُرّ العَوالي والسِّهامَ بجِسْمِهِ
كمحتطبٍ للحِملِ ليسَ يُطيق [17]

رسم السعدي صورة سيف الدولة في رفعه لهمم الرجال حين جعل الهمم وعاءً وجعل العزيمة سائلا يسكب في هذا الوعاء حتى يمتلئ، ولم يكتف الشاعر بهذا الصورة بل خلطها بصورة أخرة تتمثل في تشبيه الأمة بالجسد، وتشبيه ما فيها من مشاكل داخلية بالمرض العضال الذي لا علاجله إلا بيد الممدوح، وتكتمل صورة الممدوح حين يشبهه الشاعر بالهضبة العالية، ويشبه الليالي بالإنسان الذي يطمح للوصول إلى قمتها:

فإنّكَ تملأُ الهِمَمَ اعتزاماً
وتحسِمُ عِلّةَ الدّاءِ العُضالِ
وكيفَ تَنالُ هَضْبَتَكَ اللّيالي
وتَعْشِرُكَ المكارمُ والمعالي
وقولُكَ ليسَ يُدركُ بالفعالِ
وفعلكَ ليس يُدرَكُ بالمقالِ
وبشرُكَ للعُفاةِ بِلا نَوالٍ
أحبُّ إلى العُفاةِ من النّوالِ [18]

وابن نباتة في شعره يؤكد أن سيف الدولة كان شديد الكرم والعطاء معه، ومن عطاياه التي وصلت الشاعر ذلك الفرس المحجل السريع الذي أسهب السعدي في وصفه، فهو سريع يصل الأرض بالسماء،وقد انتصف وجه هذا الفرس علامة بيضاء رسمها السعدي حين شبه الصياح بأنسان يلطم جبينه لطمة قوية تدخل إلى أحشاء وجهه لتخلف تلك العلامة فيه، ثم يصف جسده بأنه متبرقع، يقول:

قد جاءَنا الطِّرفُ الذي أهدَيتَهُ
هادِيهِ يعقِدُ أرضَهُ بسَمائِهِ
أولِايَةً ولّيتَنا فبَعثتَهُ
رُمْحاً سَبيبَ العُرفِ عَقدَ لِوائِهِ
نَختَلُّ منه على أغَرَّ محَجَّلٍ
ماءُ الدّياجى قَطْرَةٌ من مائِهِ
فكأنّما لَطَمَ الصباحُ جَبينَهُ
فاقتص منه فخاضَ في أحْشائِهِ
مُتَمهّلاً والبرقُ من أسمائِهِ
متبرقعاً والحسنُ من أكفائِهِ [19]

وبلغ كرم سيف الدولة مع ابن نباتة حدا وصل به إلى الضجر لأن سيف الدولة لم يترك له أملا أو مطلبا يسعى إلى تحقيقه إلا وقد حققه له:

لم يُبقِ جودُكَ لي شيئاً أؤمّلُهُ
تَركتني أصحبُ الدنيا بلا أمـلِ[20]

مدح السعدى عضد الدولة البويهي فأشاد بانتصاراته واصفا حروبه متغنيا بأفراحه متألما لأحزانه وأتراحه

وفي صورة أخرى يشبه الشاعر وجه الممدوح الذي يلوح في أفق المعركة بنور الصباح في أول طلته، ويشبه الأيام بامراة ولود عجزت عن انجاب فتى كالممدوح:

فتىً هجر اللّذاتِ والعيشُ مونِقٌ
رقيقُ حواشي الطُّرّتينِ بَرودُ
وقاسَ بديعاتِ الأمورِ بنفسِهِ
إلى أنْ علاهُ الشّيبُ وهو وليدُ
له كلَّ يومٍ فكرةٌ عضديةٌ
يُصَرَّفُ وعدٌ بينَها ووعيـدُ
تَرَحَّلُ فيها للفَعالِ عزائمٌ
وتَنزلُ فيها للهُمومِ وفـودُ
وفضّلَهُ حزمٌ وعزمٌ ونائلٌ
وهمٌ له في المكرُماتِ بعيـدُ
وصبرٌ إذا بانت خطوب ملمةٍ
يقومُ لها والفاعلونَ قُعـودُ
تلوحُ وراءَ النّقعِ غُرّةُ وجهِهِ
كما لاحَ في ضوءِ الصباحِ عمودُ
فَما وَلَدَتْ بيضُ الحواضنِ مثلَه
ولا نُوَبُ الأيامِ وهي وَلـودُ[21]

ويمدح السعدي صمصام الدولة بسعة العلم وسمو السيف:

يا سميَّ الحُسامِ والنّيّرِ الأع

ظمِ لا استبدلتْ بكَ الأَيامُ
واستهلتْ بما تحب وتختا
رُ عليكَ الشُّهورُ والأَعوامُ
أَيُّ شيءٍ نقوله فيكَ أَفني
تَ المعاني وضاقَ عنكَ الكَلامُ [22]

وصمصام الدولة كذلك رجل صارم في أمره كالسيف الحاد الذي يوقف به حد الخطوب،وقد أتت الصورة هنا بتشبيه الخطوب بسيف يختفي حده ويسقط عند ظهور الممدوح:

فما مثلُ صَمْصَامِ الخِلافةِ صَارِمٌ
يُفَلُّ به حَدُّ الخُطُوبِ ويُقطَعُ
شديدُ نياطِ القلبِ لا يستخِفَّهُ
وميضُ المواضي والوشيجُ المزَعْزِعُ
تَراهُ إذا ما جئتَ تطلُبُ رِفَدَهُ
جميلَ المحيا وهو في الرَّوعِ أَروعُ [23]

والسعدي يشير إلى أن عطاء ممدوحه لا ينقطع فالخير دائم الحلول عنده، مصوراً دوام الخير في منزله، وكأن سحاباًخصص ليقف فوقه فيسقيه دون انقطاع، وقد شبه الرعد والبرق بأنسان لا يتوقف عن زيارة عزيز عليه وهو الممدوح:

وكن كأَبيكَ تُنْكِرُهُ الهُوينا
وتَعرِفُهُ المطرقةُ الوَلُودُ
سقته السَّارياتُ ولا أَغبَّتْ
زيارته البوارقُ والرعودُ
فقد كانَ الرجاءُ يسيحُ فيهِ
ويكفى من عُقُوبتهِ الوعيدُ [24]

ويؤكد السعدي هنا أن وجوه الملوك العظام تخر ساجدة أمام ممدوحه رغم صغر سنه، فقد شبهه الشاعر بالصقر الذي يُصَرْصر فوق جبله العالي:

أَعدوا السيوفَ لأَعدائِهم
فأينَ السُّيوفُ وأَينَ القِمَمْ
ولكنَّ مرتدياً بالوَقا

رِ يمنَعهُ الجِدُّ أنْ يَبتِسمْ
جَنَى وهو طفلٌ ثِمَارَ العُلا
وسادَ الورى وهو لم يَحْتَلِمِ
تُضامُ لرؤيتهِ سُجَّداً
وجوهُ الملوكِ التي لم تُضَمْ
كأَنَّ على خَشَبَاتِ السَّرير
صَقْراً يُصَرْصِرُ فوقَ العَلَمْ[25]

أما مدحه للوزراء فكان بالكرم واللين مع الناس وكرم النسب، ومن ذلك مدحه لعلي بن ديرزشت بلين القلب، وعبر الشاعر عن هذا المعنى بتشبيه الغمام بالأم التي تمتلك قلباً حنوناً، وتشبيه التراب بالطفل الصغير الذي يحن عليه في روي هب الماء:

فلم أطلُبِ المعروفَ من غيرِ كفِّه
وهلْ تُطلَبُ الأمطارُ إلاّ من السُّحْبِ
نمتكَ عرانينُ الوَرى وتَنازَعَتْ
نِطافَكَ أصْلابُ الجبابرةِ الغُلْبِ
فلا دَيْرُزُشْتٌ خانَ مَجْدُكَ مجْدَهُ
ولا فارسٌ شانَتْكَ في سالفِ الحُقْبِ
ورثتَ كتاباً عن يَلانَ وعنهُما
ورِثتَ بني سَاسانَ حِزباً إلى حِزْبِ
لأَلينُ من قلبِ الغَمامِ على الثّرى
وأقسى على صرفِ الزّمانِ من الهَضْبِ[26]

ويمدح السعدي كذلك الوزير أبا محمد بن العباس بيمن النقيبة والكمال والسماحة، بتشبيه حركات الممدوح بالمكان الهادئ:

فتىً يستكينُ المجدُ في حركاتِهِ
ويُخْلَقُ من أخْلاقِهِ والشّمائِلِ
بعيدُ المدى حتى تَفَجّرَ غارةً
تُغيّر ألوانَ الظّبا والعَوامِلِ[27]

والوزير أبو محمد بن العباس كذلك عادل ناشر للحق بعد أن كان ذلك الحق بعيدا، وجاء هذا المعنى في تشبيه الشاعر شمل الناس بحبات الدر وتشبيه عدل الممدوح بالسلك الذي يلمها وينظمها، والممدوح كذلك يمتلك ابتسامة رسمها الشاعر حين شبه بياض أسنانهالتي تكشف عن الابتسام بوميض الغمامة، فهذه الابتسامة تخفف عن الناس همومهم، وجاءت صورة حال الناس عند رؤية ابتسامة الممدوح حين شبه السنين المظلمة بالوحش الذي يغرس أظفاره في أجسادهم ولكن ابتسامة الممدوح ساعدتهم على البدء بتقليم أظافر ذلك الوحش ليزول الألم عنهم:

وأصبحَ شَملُ الناسِ بعدَ تبدُّدٍ
يُنظّمُ في سلكٍ من الحكم عادِلِ
تبسّمْتَ فيهم عن وَميضِ غَمامةٍ
نقلِّم أظْفارَ السنينَ المواحِلِ [28]

خاتمة البحث:

برز الرجل واضحا في شعر السعدي من خلال المدح إذ بين كل ما فيه من صفات الشجاعة والكرم والشهامة والنخوة وغيرها، فمدح عددا من الأمراء والوزراء ولكل منهم صفات يتميز بها، فالأمراء يمدحون "بالكرم والشجاعة ويمن النقيبة وسداد الرأي والتيقظ والحزم والدهاء، وما ناسب ذلك، ويطمح بهم في الأوصاف إلى حيث يليق بمناصبهم وما انتهت إليه ممالكهم حتى تكون رتبة العظماء منهم ثانية عن رتبة الخلفاء"[29]. مدح السعدي فلم يكن من باب طلب المناصب بل كان سعيا وراء مجد الأمة الضائع في وحل الفرقة والانشقاق. وقد وعى ابن نباتة ذلك فرسم لممدوحيه من الخلفاء والأمراء والوزراء صورا تتسم بالتهويل والتعظيم لشأنهم. الممدوح بالنسبة للشاعر مانح للحياة فحري به أن يكون المعالج لما في القلوب من نفاق، لذلك فقد جعل الشاعر من قلوب الناس وسادة والنفاق حشوة فاسدة تملؤها.

المصادروالمراجع

1 الثعالبي، أبو منصور عبد الملك النيسابوري ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ط1، 3م، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م، ج2، ص447.

2 ابن خلكان شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 4م، دار صادر، بيروت، 1972م،ج3، ص190.

3 ابن العماد، شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط1، 18م، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م، ج3، ص318

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك ، الوافي بالوفيات، ط2، 29م، فرانز شتايز، شتودغارت 1991م، ج18، ص:5324

البغدادي اسماعيل بن محمد الباباني ، هدية العارفين، دار الفكر، القاهرة، 1983م،ج1، ص5.577

الثعالبي، يتيمة الدهر، ج2، ص447 6
ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3 ص1907
الصفدي ، الوافي بالوفيات، ج:18، ص:534 8
الطائي، ديوان ابن نباتة السعدي، ج1، ص87. 9
الزركلى ، خير الدين ، الأعلام، ط:5، بيروت: دار العلم للملايين، ج7، ص10.132
11 السعدي، ابن نباتة(ت405هـ)، ديوان ابن نباتة السعدي، ج2، ق157، ص274، ب26- 30، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1397هـ-1977م.
الديوان: ج2، ق157، ص275، ب31- 12.32
الديوان: ج2، ق181، ص369، ب6- 9. 13
عبد الجابر، سعود محمود ، الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني، (ط1)، مؤسسة الرسالة،بيروت، ص14.97
الحموي، معجم البلدان، ج1، ص15.118
الديوان: ج1، ق4، ص196، ب19- 16.24
الديوان: ج1، ق4، ص197، ب31- 32. 17
الديوان: ج1، ق9، ص222، ب4- 18.7
19 الديوان: ج1، ق26، ص273، ب2- 6.
الديوان: ج1، ق5، ص208، ب20.40
الديوان: ج1، ق87، ص549، ب12- 21.19
الديوان: ج2، ق103،ص20، ب5- 22.7
الديوان: ج2،ق106، ص30، ب5 -23.7
الديوان: ج2، ق107، ص29، ب10- 12. 24
الديوان: ج2، ق128، ص115، ب10- 25.14
الديوان: ج1، ق34، ص316، ب23 -27. 26
الديوان: ج1، ق35، ص323، ب24- 27.25
الديوان: ج1، ق35، ص325، ب35- 28.36
القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص29.170